المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

جان جاك روسو الباحث عن العدالة في أصل التفاوت

Jean Jean Jacques Rousseau seeker of justice in the Origin and Foundations of Inequality.

د . بن ترار عبد القادر
جامعة وهران 02،

تاريخ الإرسال: 03 / 12 / 2018	تاريخ القبول: 05 / 03 / 2020	تاريخ النشر: 10 / 04 / 2020

ملخص:

إنّ غياب العدالة داخل المجتمعات الغربية الحديثة، جعلت القرن الثامن عشر يشهد ميلاد مرحلة جديدة تعرف بعصر الأنوار، حيث تقوم على إعادة بعث الحياة التي ملأها الاستبداد والاضطهاد والظلم من خلال تقديم طروحات فلسفية ورؤى تعالج عدّة مفاهيم سياسية كالدّولة، التّسامح، المواطنة، والعدالة، أنظمة الحكم، ومن هنا فإن فلاسفة عصر الأنوار أغنوا الفكر السياسي الليبرالي بالمفاهيم الحديثة ويعدّ جان جاك روسو (1712-1778م) أحد أبرز المنظّرين للفكر السّياسي والتّربوي، فمن خلال خطابه حول " أصل التفاوت بين البشر" سيحاول أن يوضّح منشأ اللا مساواة داخل المجتمع، وكيف أن الماضي البشري الذي نظر إليه الفلاسفة نظرة سلبية قبله مثل : هوبز يشكّل أسمى وجود لهذا الكائن الذي لم يعرف العدالة إلا في ظل تلك الحالة الطبيعية.

الكلمات المفتاحية: العدالة، التّفاوت، الحالة الطّبيعية، الحالة الصّناعية، نظام الحكم، النّظام السياسي.

Résumé

L’injustice qui régnait dans les sociétés occidentales modernes, a donné naissance à une nouvelle ère au dix-huitième siècle connue sous le nom de Siècle des Lumières, qui constitue à promouvoir une vie dominée par la tyrannie, l’oppression et l’injustice, à travers des thèses philosophiques et des visions tendant à traiter une pluralité de notions politiques, tel que l’Etat, la tolérance, la citoyenneté, la justice et les régimes de gouvernances, et c’est depuis là que les philosophes du Siècle des lumières ont enrichi la pensée politique libérale des notions modernes, à l’instar de Jean Jacques Rousseau (1712-1778), considéré comme étant le plus illustre des théoriciens de la pensée politique et éducative, lequel a tenté dans son discours sur « L’origine de l’Inégalité entres les Hommes » d’évoquer le fondement de l’inégalité dans la société, et comment le passé humain, vu sous un angle négatif par les philosophes bien avant lui, tel que Hobbes, est considéré comme l’existence la plus suprême de cet être humain, qui n’a connu la justice qu’au sous cet état de nature.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

Mots clés : La justice – l'inégalité – état de nature – état Industriel – Régime de gouvernance – Régime Politique.

يقول **برتران دي جوفنال**: "لكن هاهي السلطة قد أخذت وجها رهيبا، والقوّة التي وضعت بين يديها أصبحت وسيلة لاقتراف المنكر، بدل خدمة الصّالح العام، كيف لا أنفعل ولا أصرخ أمام مشهد كهذا[1]".

ربّما يلخّص هذا الكلام أو القول وضعية أوروبا القرن الثّامن عشر وفرنسا على وجه الخصوص على اعتبار أنّها كانت حاملة لواء الثّورة ضدّ الاستبداد والظّلم، الذّي كانت تقترفه أقلّية في حق أكثريّة الشّعب، هذا إذن ما يفسّر جرأة جون جاك روسو وتمرّده ضدّ هذا الوضع المتأزّم سياسيّا واقتصاديا واجتماعيّا وثقافيّا على اعتبار أنّه ذاق طعم التّشرّد والحرمان طيلة حياته، حيث يعتبر روسو أكثر فلاسفة عصره جرأة وشجاعة، فقد شغل روسو (1712م-1778م) مكانة خاصة بين أعلام التّنوير الفرنسي، وكان من أكثرهم تأثيرا [2] ، ولد بجنيف من أسرة فرنسية الأصل بروتستانتية المذهب[3] حيث " كان أبوه رجلا فقيرا جمع بين مهنة صانع ساعات، ومعلم رقص، وماتت أمه، ولم يزل طفلا رضيعا [4]"، ولقد تركت وفاتها الأسى واللوعة في قلب زوجها الذي أحبّها كثيرا، وفي قلب طفلها جان جاك الذي راح يتذكرها في صباه قائلا : " كنت ضعيفا ومريضا منذ ولادتي، وقد دفعت والدتي حياتها ثمنا لهاته الولادة التي كانت أولى المصائب التي حلت بي[5]".

ما كان لطفل إذا في سنّ الخامسة عشر أن يتّجه للبحث عن عمل يسدّ به رمقه سوى وجوده داخل منظومة اجتماعية غير عادلة وغير متوازنة، هذا هو جون جاك روسو الذّي فضّل ذووه أن يتّخذ له مهنة يدويّة فوضعوه عند نقّاش يدعى "دي كوفان" وكان رجلا فظّا، خشن الخلق شرس الطّبع أفلح في إساءة أخلاقه، وجعل منه عبدا ذليلا، وفقد الطّفل مشاعر الطّيبة، فانتهى أمره إلى التّشرّد وأمعن في ضربه، وعلّمه رذائل لعلّه كان يجهلها، وبدأ روسو يقلّد الأطفال المتشرّدين، وكذلك عرف الكسل والكذب

---

[1] نور الدين بوكروح، الجزائر بين السّيئ والأسوأ، نورة بوزيدة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م، ص 73.

[2] جماعة من الأساتذة السّوفيات، موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة توفيق سلّوم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص201.

[3] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط5، القاهرة، مصر، (د-ت)، ص200.

[4] برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث (الفلسفة الحديثة)، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي، الدار المصرية العامة للكتاب، بدون طبعة، 1977م، ص288.

[5] موريس شربل، ميشال أبو فاضل، روسو(حياته ومؤلّفاته وأثره)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، لبنان، بيروت، ط1، 1978م، ص18.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والمخاتلة والسّرقة[6] وهكذا عرف في بداية عمره، حياة العوز والتشرّد[7] "فكان عليه أن يعيش سنوات من التيه والضياع، والبحث اليائس عن العمل قبل أن يبدأ حياته الأدبية[8]" وعن تلك الأيّام البائسة يقول روسو:"كنت مستعدّا لأتقبّل أيّة مهنة وبصورة خاصّة هذه المهنة، إلاّ أنّ استبداد معلّمي كرّهني في النّهاية بالشّغل، وأورثني النّقائص التي كنت أكرهها[9]".

ولم يكن هذا حال روسو وحده، بل كذلك كانت أحوال الشّعب الذّي يجمع المؤرّخون على أنّ وضعيته المتردّية نتيجة الفوارق الاجتماعية الواضحة بين طبقاته كانت العامل الأبرز في إشعال فتيل الثّورة الفرنسية، وهو ما تقول عنه زينب عصمت راشد:"حين كانت الأقلّية من طبقات هذا الشعب تتقلّب على فراش الحياة النّاعمة، كانت الأكثريّة ترزح تحت الأعباء الخشنة الثّقيلة التي تقتضيها حياة الكادحين الذّين ينبتون أقواتهم على إرواء الأرض من مسيل الدّمع والعرق، ولا يجدون في نظام الحكم السّائد يومئذ عزاء لما يتذوّقون من مرارة الحياة، فهم كانوا مضطرّين إلى تأدية ما يطلب إليهم من التزامات الإقطاع، وتأدية ما يفرض عليهم من ضرائب ينفردون دون غيرهم بدفع أثقلها[10]".

لقد كان روسو معبّرا وبصدق عن الوضع الاجتماعي المتدهور الذّي كانت تعيشه فرنسا إبّان القرن الثّامن عشر، هاته المعاناة اليوميّة جعلته يحسّ بقسوة الظّلم ومرارة الألم منذ بداية حياته، حتى قال:"لقد عرفت الشّعور قبل أن أعرف التّفكير، هذا نصيب البشر المشترك، إلاّ أنّه كان نصيبي أكثر من غيري[11]".

لا شكّ أنّ النّظم الاجتماعية في الدّول الأوروبية كانت تكرّس الظّلم والطّبقيّة كفرنسا لكن "كان هنالك فارق هام، وهو أنّ الفرنسي كان أكثر شعورا بالغبن الواقع على الشّعب بيد الملكيّة المطلقة

---

[6] نجيب المسكتاوي، جان جاك روسو(حياته ومؤلّفاته وغراميّاته)، دار الشّروق، لبنان، بيروت، ط1، 1409هـ/1989م، ص-ص 11-12.

[7] جماعة من الأساتذة السّوفيات، المرجع السّابق، ص201.

[8] فولغين، فلسفة الأنوار، ترجمة هنريت عبّودي، مراجعة جورج طرابيشي، دار الطّليعة، ط1، بيروت، لبنان، 2006م، ص210.

[9] موريس شربل، المرجع السّابق، ص22.

[10] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث في القرن التّاسع عشر، ج2، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة، بدون طبعة، 1421هـ/2000م، ص25.

[11] موريس شربل، المرجع السّابق، ص19.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والطّبقة المميّزة، وأدرك عن حق أنّ بعض الأعباء الملقاة على الفلاّح الفرنسي مستمدّة من تراث العصور الوسطى[12]".

لعلّ هاته الحالة الاجتماعية التي تغيب عنها العدالة جعلت "جيفري براون" يعبّر عنها بقوله:"لو فرضنا أنّ فلاّحا من فلاّحي عهد الحروب الصّليبية عادت إليه الحياة يوم انشقّ فجر القرن الثّامن عشر، فنهض من قبره بعد أن رقد فيه سبعمائة عام، وأخذ يتجوّل بين ممالك أوروبّا باحثا عن حياة النّاس وما حدث في أساليبها من انقلاب وتغيّر، لوجد أنّ كثيرا من العادات والنّظم التي ألفها أيّام كان حيّا يزرع الأرض ويقنع بالرّزق القليل، لا تزال باقية كما عهدها وكما خضع لها خضوعا تامّا منذ أن دبّت فيه قوّة الحركة إلى أن هوى جثّة باردة[13]".

إن وجود طبقة مالكة مستغلّة تشكل 3% من مجموع المجتمع الذي بلغ عدده حوالي 25 مليون تقريبا، وبالرّغم من قلّة عدد هاته الطبقة إلاّ أنّها كانت غنيّة ومستأثرة بالمناصب المدنيّة والعسكريّة

وطبقة مستغلّة تشكل السّواد الأعظم من الشعب متمثّلة في الفلاحين والأجراء، والتي تشكل 97 % الباقية، كلّ هذا يعكس اللاّمساواة الاجتماعية التي كانت في حدود اللاّمطاق داخل البنية الطّبقيّة للمجتمع الفرنسي، والتي تستمد صورتها من نظام العصور الوسطى، حيث كان المجتمع الفرنسي يئنّ من الفروق الصّارخة بين طبقاته وأفراده[14].

إن الواقع الاجتماعي هذا كان يقابله واقع سياسي لا يختلف عنه، فليس غريبا أن يمتعض ويستنكر جان جاك روسو النّظام السّياسي والحياة السّياسية، التي كانت تشهدها فرنسا القرن الثّامن عشر، وهو الذّي كان دائما يفخر بانتسابه إلى جنيف، حتى لقّب بمواطن جنيف، هناك أين يسود الحكم الجمهوري الذّي دائما ما افتخر بأنّه ولد في ظلّه، حتى وضع لقبه "مواطن جنيف" على كتابه " العقد الاجتماعي

[12] عبد الفتّاح أبو علية، أحمد ياغي إسماعيل، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المرّيخ للنّشر، المملكة المملكة العربية السعودية، الرياض، ط3، 1413هـ/1993م، ص 245.

[13] جفري برون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المزروقي، دار الأهلية، ص335.

[14] شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزّاق إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، مصر، القاهرة، بدون طبعة، 2000م، ص87.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

"الذي افتتحه بعبارة :"يولد الإنسان حرّا، ويوجد الإنسان مقيّدا في كل مكان، هو يظنّ أنّه سيّد الآخرين، وهو يظلّ عبدا أكثر منهم[15]"

لم يكن روسو ليطيق هذا الوضع السّياسي المتأزّم، الذّي لم يتغيّر منذ أن فتح عينيه على العالم، بل كان يسير من سيّء إلى أسوأ، حيث أنّ لويس الخامس عشر قد حكم البلاد منذ 1715م وإلى غاية وفاته سنة 1774م، أي طيلة فترة حياة روسو، مع العلم أنّ الملك لويس الخامس عشر، ولّي على عرش فرنسا وهو ابن الخمسة أعوام لذلك احتاج إلى تنصيب قيّم أو مشرف عليه[16]"

لقد حاول روسو أن يرفع الظلم والاستبداد الذي لحق بالمجتمع الفرنسي، وهنا يقول غوتيه: "مع فولتير فإن العالم القديم هو الذي ينتهي، أما مع روسو فإن عالما جديدا يبدأ[17]" فمن خلال المؤلّف الثاني الذي لم ينل جائزة ديجون " **خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر** " سنة 1755م، والذي هاجم فيه المراتب الاجتماعية، وما كان غرضه الإشادة بفكرة طيبة الإنسان الفطرية بقدر ما كان هدفه التّنديد بظلم المجتمع[18] وكيف أن التغيير الذي طرأ على الحالة الطبيعية، ونشوء المجتمع المدني بدأ في الوهلة التي ظهرت فيها الملكية الخاصة، وهو يقول هنا: "إن أول من صوّر أرضا وقال هذه لي هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني[19]" لذلك استنكر " كارل ماركس " لاحقا وبشدّة الملكية الخاصة حين قال: " بدأت مأساة الإنسان عندما قال أحدهم هذا لي " أي أن الحالة الطبيعية كانت خالية من التفاوت، وهو هنا ينطلق من قول أرسطو في كتابه " السياسة ": "للبحث فيما هو طبيعي يجب النظر إلى الأشياء التي لا تزال وفق الطبيعة، لا فيما فسد منها"، وهنا بدأت رحلة روسو للبحث عن العدالة، وإمكانية تحقيقها داخل المجتمع الإنساني، فقد وهب روسو نفسه منذ البداية للدفاع عن الإنسانية، وذلك حينما افتتح خطابه " خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر" بعبارة " إنما عن الإنسان سأتحدّث" حيث كان يحمل هنا ثقافة الثائرين والأحرار، لا ثقافة المهزومين والعبيد، لقد كان يسعى إلى بعث إنسان الطبيعة من جديد

---

[15] روسو جان جاك، العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعيتر، دار النّشر كلمات للتّرجمة والنّشر، مصر، القاهرة، ط1، 2013م، ص24.

[16] تعريب حسن أفندي قاسم خوجة، تاريخ ملوك فرنسا من مبدأ ملكهم إلى الملك لويس فليب، ص222.

[17] جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطّليعة، بيروت، لبنان، ط3، 2006م، ص331.

[18] المرجع نفسه، ص330.

[19] جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ترجمة بولس غانم، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2009، ص- ص21-22.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

(إنسان العدالة) لا إنسان المدنيّة (إنسان التفاوت)، وذلك من خلال طرح فكرة الحالة الطبيعية كوعاء يمكن من خلاله التعريف بالإنسان الطبيعي.

إن شعوره بالغربة والوحدة جعله يقول: "إني لا أملك من نفسي سوى نصفها، أمّا نصفها الآخر فهو للمجتمع الذي لم أخلق له[20]"، هذا جعل روسو يرى أن هناك وجودا آخر مختلفا وإنسانية أخرى تتطابق مع إنسانيته، والتي وجدها في إنسان الطبيعة أو المتوحش النبيل، وهكذا رفض روسو الواقع الاجتماعي الفرنسي المعنون تحت شعار المدنية، التي تعبّر عن المسخ لا الأصل ومعها الإنسان المكوّن لها، أي الإنسان المدني.

إن تنامي إحساسه وشعوره بأنه غريب بين بني جنسه، جعله يحس بمرارة شديدة، جعلته يقول :"لقد أصبح البشر مجهولين لديّ، وغرباء، إنهم غير موجودين في نظري[21]" لذلك هبّ روسو للبحث عن الإنسان الحقيقي آملا وطامعا أن يهتدي إليه ويجده.

إن الحالة الطبيعية في نظر روسو هي تلك المعبّرة عن حياة الإنسان في غياب المجتمع والقانون، أي الإنسان مجرّدا من كل مضاف اجتماعي، وهذه الحالة لا تعبّر عن حقيقة تاريخية وإنما هي مجرّد افتراض عقلي يضعه روسو من أجل بناء نظريته حول التفاوت واللامساواة، وهو هنا يقول: "ليس بالعمل الهيّن أن نفرز بين ما هو أصلي وما هو اصطناعي في طبيعة الإنسان الحالية، ولا بالسّهل أن نعرف حق المعرفة حالة لم تعد توجد، وربّما لم توجد قط، ومن المحتمل أن لا توجد أبدا[22] " وهنا يقرّ روسو منذ البداية أن الحالة الطبيعية لا يمكن إثباتها بالوثائق التاريخية، وإنما هي افتراض عقلي للنمط الذي كان الإنسان يحياه خلالها، حيث صوّر هذه الحالة الفطرية على أنها الصورة المثالية التي شهدت مساواة بين أكبر عدد من الناس، كقوة الأطراف، وليونة الجسد، وسرعة الحركة[23].

هذه المرحلة التي كان فيها التفكير تابعا للعمل لا العكس، حيث انتقد روسو تلك النظرة التي جعلت من الإنسان فيلسوفا قبل أن يكون إنسانا[24] ومن هنا انتقد روسو التفكير حيث قال: "إن حالة التفكير حالة

---

[20] برنار غروتويزن، فلسفة الثورة الفرنسية، تر: عيسى عصفور، منشورات بحر المتوسط، بيروت، ط1، 1982، ص 99.

[21] المرجع نفسه، ص100.

[22] روسو، المصدر السّابق، ص53.

[23] ول ديورانت، قصّة الحضارة "روسو والثورة"، المجلّد 10، ج1، تر: فؤاد أندراوس، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1967، ص54.

[24] محمّد مهدي الجزيري، نقد التنوير عند هيردر، دار الحضارة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، طنطا، مصر، 1999، ص131

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

تضاد الطبيعة، وأن الإنسان الذي يتأمل بعقله، حيوان فاسد[25]"، وهكذا فإن ما يعطي للحياة قيمتها هي الانفعالات والمشاعر المشتركة (الغرائز) التي تربط بين أفراد النوع البشري[26] وعليه فإن التطور والتقدم الإنساني المبني على التفكير، والذي لا يصاحبه مساواة وعدالة كما هو سائد في الحالة الطبيعية، فهو ضد الطبيعة، وبالتالي كل إبداع وإنتاج إنساني لا يساير النسق أو الحالة الطبيعية، يخرج من النظام الطبيعي، وإنتاجه يكون تعبيرا عن نظام ثان بمعنى عن مسخ للنظام الأول، وتلك شكلت نقطة التحول في علاقة الإنسان بالقانون فيما بعد، من حيث هو إذعان للمسخ وليس امتثالا للأصل الطبيعي، المتمثل أساسا في الغرائز، وهنا يقول روسو:"لم يكن الإنسان يعرف غير الغريزة فلم يخالجه رغبة، سوى احتياجاته العضوية، ولم يتصوّر في الكون خيرا إلا الغذاء، والأنثى والراحة، ولم يتصوّر فيه شرا إلا الألم والجوع[27]"، وعليه فإن روسو بافتراضه للحالة الطبيعية، كمفهوم وظيفي هدفه الأساسي هو معرفة طبيعة المجتمع الراهن، الذي كان يعيش فيه بالمقارنة مع الأساس المفترض، ومدى التحوّل الجذري الذي حصل. إلا أن روسو يميّز ضمن الحالة الطبيعية ثلاث مراحل: المرحلة الأولى حيث عاش الإنسان فيها حالة من المساواة، بالرغم من عدم امتلاك البشر لقدرات متساوية، والمرحلة الثانية والتي يسميها روسو ب" الحقبة الذّهبية" والتي نشأت نتيجة اجتماع الأفراد نظرا لعوامل جيولوجية، حيث كانوا ينعمون بعيش مشترك دون أن يشكّل أحدهم خطرا على الآخر، والمرحلة الثالثة التي بدأ معها الإنتاج الزراعي، من خلال اكتشاف الحديد الذي ساهم في صناعة أدوات الإنتاج، وهي المرحلة التي شهدت ميلاد الملكية الخاصة، وظهور القوانين[28].

لقد وجد روسو العدالة، في الحالة الطبيعية التي رسمها على خلاف فلاسفة العقد الإجتماعي كـ:هوبز مثلا الذي كان ينتقد الحالة الطبيعية على اعتبار أنها الشّكل الذي يجب أن يهاجم بالنّقد في تاريخ البشريّة، حيث كانت الفوضى المتولّدة من أنانية البشر تقدّم صورة للمجتمع الذي يحيى وفق قانون الغاب[29] هذا جعل روسو يعيد تصحيح الرؤية على اعتبار " أن الطبيعة أوجدت الإنسان حرّا وخيّرا

[25] روسو، المصدر السّابق، ص78.

[26] جورج سباين، تطور الفكر السياسي،ج4، تر:علي إبراهيم السّيد، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، (د-ت)، ص57.

[27] نجيب المسكتاوي، المرجع السّابق، ص153-154.

[28] عبد الوهاب الكيالي،، موسوعة السياسة، ج2، المؤسّسة العربية للدّارسات والنّشر، بيروت، لبنان، 1981، ص845.

[29] حسين عثمان محمد عثمان، النظم السياسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006، ص 155.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وسعيدا، إلاّ أن الحياة الاجتماعية التي حتّمتها ظروف كارثية، راجعة إلى الصّدفة، حوّلت الإنسان إلى كائن شقي وزائف[30].

وبالرّغم من أن الحالة الطبيعية كانت تحمل نوعا من اللاّمساواة أو التفاوت إلاّ أنّه كان مقتصرا على فارق السن والصحة وقوى الجسد، وصفات الروح أو النفس. وهي لا مساواة من صنع الطبيعة أي أنها تتماشى والنظام الطبيعي، أي أنها لا تبعث المشاكل، على غرار التفاوت الصناعي أو السّياسي الذي نلاحظ فيه "جملة من الامتيازات يتمتّع بها بعض الناس إجحافا بحقوق الآخرين، كأن يكون أصحاب تلك الامتيازات أوسع غنى وأعلى شرف أو أشد قوة، أو كأن يكونوا في وضع يمكّنهم من فرض الطاعة على من هم دونهم[31]".

وعليه فإن مشاكل الحياة الاجتماعية كان مردّها فرض هذا التفاوت الصناعي أو المدني الذي يتعارض مع منطق الطبيعة، كأن نجد الأبله يقود الذكي وحثالة الناس وأغباهم على رأس الدّولة يتزعمونها، هذا كلّه أدخل الإنسانية في مشاكل لا حصر لها وأزمات، كان يستحيل وجودها في الحالة الطبيعية، كما يستحيل تجاوزها دون العودة لتلك الحالة في شكل العقد الاجتماعي عند روسو فيما بعد.

لذلك فإن كل ما نعيشه اليوم كان سببه تغييرنا لوضعنا الأصلي وإحلالنا لوضع مدني صناعي، يقول روسو: "وجدت السبب في نظامنا الاجتماعي الذي يتعارض في كل شيء مع الطّبيعة. التي لا شيء يحطمها، إن هذا السبب هو يستبدّ بالمجتمع بلا هوادة[32]" ولم يأتي مشروع روسو هذا لهدم ما هو قائم بل لمحاولة إصلاحه بشكل يصبح ضمن المقبول واللاّمطاق. "على العموم لم يفكر روسو في إقامة مجتمع قائم على المساواة المطلقة، ولكن أراد إزالة الجور، وتخفيف الفوارق، وعدم اتساع الهوّة بين الناس، أي بين الأكثر فقرا والأكثر غنا [33]".

وعلبه ينطلق روسو من حالة اللاّرجعة التي وصل إليها الإنسان الطبيعي الذي غيّر من حالته الأولى إلى حالة صناعية أضحت هي قدره المحتوم الذي لا يستطيع أن يقارعه أو يتملّص منه، "وهكذا يصوّر روسو

[30] يوسف السّهيلي، مصدر التّفاوت بين البشر: مقارنة بين إنسان الطّبيعة وإنسان المجتمع من خلال مقال 1755 لجان جاك روسو، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد136-137، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس، (د-ت)، ص117.

[31] روسو، المصدر السّابق، ص64.

[32] الزواوي بغوره وآخرون، التنوير ومساهمات أخرى، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية وكرسي اليونسكو للفلسفة في العالم العربي، فرع جامعة منتوري، قسنطينة (د-ت)، ص250.

[33] نور الدين حاروش، تاريخ الفكر السّياسي، دار الأمة للطباعة، الجزائر، ط1، 2004م، ص326.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

منشأ المجتمع والقانون، كأنظمة أضافت قيودا جديدة للفقراء، وسلطات جديدة للأغنياء، ودمّرت إلى الأبد الحرّية الطّبيعية، وثبّتت تثبيتا خالدا قانون الملكية وعدم المساواة، وحوّلت الاغتصاب الذّكي إلى حق غير قابل للتّغيير، ومن أجل مصلحة أفراد طموحين قلائل، أخضعت جميع البشريّة للعمل الدّائم والبؤس[34]". وإذا أصبح السّير نحو الأمام إذن وفق حالة جديدة حتمية، وجب إذا أن نرسم تصوّرا جديدا نضمن من خلاله مصلحة الجميع ما يجعل حياتهم متوافقة ومتناسقة مع بعضهم البعض، بمعنى ما لا يضرّ ولا يمس بالحرّيات الشخصية لكل إنسان على حدة، وهو الذي يمنحه روسو مسمّى العقد الإجتماعي أو دستور المواطنة الحقيقة، والذي يصفه بقوله: " إيجاد شكل لشركة تجيز وتحمي بجميع القوّة المشتركة شخص كل مشترك وأمواله، وإطاعة كل واحد نفسه فقط وبقاؤه حرّا كما في الماضي مع اتّحاده بالمجموع[35]".

وهكذا يبنى العقد الذي يستشعر من خلاله كل فرد حرّيته الخاصّة على اعتبار أنّه كان مشاركا في صناعتها ومن ثمّ إقراره نحوها هو امتثال لإرادته التي اتّحدت مع إرادات الجميع لتحافظ على الكل، وأي نقض لما جاء في هذا العقد أو الميثاق الاجتماعي يخوّل الأفراد عدم الامتثال له والاحتجاج ضدّه، والعودة إلى نقطة الصّفر لبناء عقد جديد[36]. تكون مشروعيته نابعة من بناء دولة القانون ودولة المؤسسات لا دولة الفرد، وهو ما يعبّر عنه بقوله: " يضع كل واحد منّا شخصه وجميع قوّته شركة تحت إدارة الإرادة العامة، ونحن نتلقّى كهيئة، كل عضو كجزء خفي من المجموع[37]".

إنّ مثل هذا الميثاق ينتج لنا دولة تخضع لإرادة شعبية، وتدار من قبل حاكم وفق ما اتّفقت عليه تلك الإرادة، لذلك يقول روسو: " لا يمكن أن نكون بشرا إلاّ إذا أصبحنا مواطنين[38]"

وهكذا وبالرّغم من أنّ الحالة المدنيّة بمساوئها لا يمكن إلغاؤها والعودة إلى الحالة الطّبيعية أي إلى الوراء، إلاّ أنّه وبتقنينها داخل فضاء العقد الاجتماعي، وبنقلها من حرّية طبيعية لا نهائية إلى حرية مدنية تمتثل لما تمليه الإرادة العامة، مع إبقائها لحق التّملّك ولكن في إطار شروط العقد الاجتماعي تكون الحالة المدنيّة هي البديل الشّرعي وليس الأفضل للحالة الطّبيعية، وبترسيخ قيم العقد الاجتماعي يستطيع

[34] محمد عبد المعز نصر، في النّظريّات والنّظم السّياسية، دار النّهضة العربيّة، بيروت، لبنان، (د-ط)، 1981م، ص- ص98-99.

[35] جان جاك روسو، العقد الإجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، المصدر السابق، ص49.

[36] المصدر السابق ، ص-ص49-50.

[37] نفسه، ص50.

[38] عبد الجليل أبو المجد، مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي، المغرب، ط1، 2010، ص37.

المجلد الحادي عشر/ العددالرابع/ 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الإنسان أن يتجنّب ذلك المسخ الذي نقله إلى مرحلة أنتجت معها كل المفاسد والشّرور التي لقيها روسو في حياته، ومعه المجتمع الفرنسي في عمومه[39].

هذا ما جعل **عبّاس محمود العقّاد** يقول عن روسو:"عاش مظلوما طول حياته، وبقي مظلوما بعد مماته، وكانت رسالته في هذه الدّنيا أن يرفع الظّلم عن المظلومين[40]".

وأخيرا نقول:"لم يكن روسو متقدما فحسب على جيله، بل كان معارضا عنيفا لاتجاه زمانه الذي أصبح الروح السائدة في عصرنا، إلى حد أن موقفه يحيّرنا [41]".

لقد رسم روسو صورة القرن الثامن عشر بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيّات، فانتقد الملكية الاستبدادية، ورجال الكنيسة من جهة، وأوضح الجانب القاتم الذي يرافق التطور والتقدم، هذا ما سيؤكده لا حقا وبشكل كبير في الفلسفة المعاصرة " يورغن هابرماس " (1929- إلى يومنا) حين يقول : " الحداثة مشروع لم يكتمل بعد ".

وفي الأخير نلاحظ أن المجتمع الفرنسي من خلال ما شهده خلال القرن الثامن عشر من ظلم واستبداد كان لا بدّمن أن يحسم مصيره ويكتب تاريخه بيديه، وفق الخطاب الذي قدمه فلاسفة ذلك العصر وروح الأنوار، التي أخذت تشرق عليه، حيث كان روسو من أكبر المعبّرين عنها حتى لو استدعى ذلك التضحية بالنفس، وهنا يقول تشيغيفارا: " لن يكون لدينا ما نحيا من أجله إن لم نكن على استعداد لأن نموت من أجله، إن الطريق مظلم، فإذا لم تحترق أنت وأنا فمن سينير الطريق".

---

[39] المصدر السابق، ص54.

[40] عقيل يوسف عيدان، التّنوير في الإنسان، شهادة جون جاك روسو، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، بيروت، الجزائر، ط1، 1430هـ/2009م، ص9.

[41] موريس فرادوارد، موسوعة مشاهير العالم، ج5، أعلام الفكر السياسي، دار الصداقة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2002م، ص61.